خصائص الرد الهوسرلي

The Characteristics of Husserl' Reduction

Les caractéristiques de la réduction de Husserl

د. قايد سليمة

المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة

تاريخ الإرسال: 2019-06-26 **-تاريخ القبول:** 2019-08-30 **-تاريخ النشر:** 2020-12-08

ملخص

هذا المقال هو محاولة للتعريف بالرد الفينومينولوجي، من خلال التعريف به من جهة الخصائص العامة التي يتميز بها، ولما كانت هذه الخصائص كثيرة فإننا اخترنا أهمها، والتي تتمثل فيما يلي: الرد امتناع أو تعليق، وهو كلي، حقيقي، شخصي، إرادي، دائم، تدريجي، متكرر، وهو عملية عقلية جد خاصة، تتميز عن جميع العمليات العقلية التي عرفها الفلاسفة من قبل. وغرضنا هنا هو تبسيط هذه النظرية نظرا لصعوبتها الكبيرة، فهي نظرية ملفوفة بالغموض والتعقيد إلى أقصى الحدود، وهوسرل نفسه كان يعرف صعوبات نظريته ويجتهد باستمرار للتغلب عليها.

الكلمات الدالة: الرد؛ الإيبوخيه؛ التعليق؛ الامتناع؛ الفينومينولوجي؛ الوعي المتعالي؛ الموقف الطبيعي؛ الموقف المتعالي.

Abstract

This article attempts to define phenomenological reduction in terms of its general characteristics. We will be interested in the study of the most important characteristics which describe the Husserlian reduction as a universal, real, personal, voluntary, lasting, progressive, repeated, rational abstention, very special and different from all the operations known to philosophers. Our goal is to make a contribution to the knowledge of this theory which remains marked by its ambiguity and its complexity that Husserl made enormous efforts to explain it and defend its originality.

Keywords: reduction; epochè; suspension; abstention; phenomenology; transcendental consciousness; natural attitude; transcendental attitude.

Résumé

Cet article tente de définir la réduction phénoménologique sous l'angle de ses caractéristiques générales. Nous nous intéresserons à

l'étude des caractéristiques les plus importantes qui décrivent la réduction husserlienne comme une abstention universelle, réelle, personnelle, volontaire, durable, progressive, répétée, rationnelle très spéciale et différente de toutes les opérations connues par les philosophes. Notre objectif est d'apporter une contribution à la connaissance de cette théorie qui reste marquée par son ambigüité et sa complexité que Husserl a déployé d'énormes efforts pour l'expliquer et défendre son originalité.

Mots-clés: réduction; épochè; suspension; abstention; phénoménologie; conscience transcendantale; attitude naturelle; attitude transcendantale.

مقدمة

تعد الفينومينولوجيا بحق أحد أبرز التيارات الفلسفية في الفترة المعاصرة، ويرجع الفضل في تأسيسها إلى الرياضي والفيلسوف الألماني ادموند هوسرل (Edmund Husserl) (1859 - 1938). ومثلما لا يمكننا أن نتحدث عن الفلسفة المعاصرة من دون أن نذكر الفينومينولوجيا، لا يمكننا كذلك الحديث عن الفينومينولوجيا دون ذكر نظرية "الرد الفينومينولوجي"، فهي من أهم نظريات هذه الفلسفة، ولا أدل على ذلك أن هوسرل قد جعل الرد شرطا ضروريا وأساسيا لوجودالفينومينولوجيا. "الرد هو المنهج الراديكالي الذي تشرع بفعله الفينومينولوجيا كفلسفة جديدة، وتتأسس بفضله كعلم صارم" (بن أحمد، 2008، ص 158)، ويعني ذلك أن الفينومينولوجيا لا تتأسس إلا بعد ممارسة الرد.

من جهة أخرى يرتبط الرد بجميع أجزاء الفينومينولوجيا، بحيث يمكننا اعتباره بمثابة النواة أو المركز الذي تتمحور حوله باقي مفاهيمها ونظرياتها الأخرى. "الرد هو مفهوم مركزي يجد ضرورته ومشروعيته الفلسفية في إطار المنظومة العامة لجملة المفاهيم المكونة للفينومينولوجيا، مثل الحدس والماهية والكوجيطو والقصدية والتقويم والتكوين الخ". (بن أحمد، ص 152).

ونظرا إلى أهمية نظرية الرد عند هوسرل، فإننا ارتأينا أن نخصص لدراستها هذا المقال، حيث سنسعى فيه لشرحها شرحا مركزا ومبسطا، علّنا ننجح في إزالة بعض الغموض عنها. والإشكالية التي سنطرحها هي: ما هو تعريف الرد الفينومينولوجي عند

هوسرل؟ وما هي أهم خصائصه؟ وما هو الدور الكبير الذي يقوم به في الفينومينولوجيا من وجهة نظر مؤلفه حتى يعتبره أساسها وشرط وجودها؟

فيما يتعلق بالمنهج الذي اعتمدناه في هذا المقال فهو المنهج التحليلي أساسا، لأنه أنسب منهج لموضوع بحثنا، والذي يقوم بالرجوع إلى النصوص، إما من المصادر أو من المراجع، ثم تحليل مضمونها مباشرة، بما يخدم أغراض بحثنا. إضافة إلى ذلك استعملنا في بعض الأحيان المنهج المقارن، وهذا نظرا لارتباط هوسرل بالكثير من الفلاسفة الذين ظهروا قبله أو في عصره (خاصة ديكارت، هيوم وكانط)، فهو تأثر بهم في بعض أفكارهم، كما انتقدهم في بعض أفكارهم الأخرى، وقد قمنا بمقارنة أفكار هوسرل مع أفكار سابقيه أو معاصريه عندما وجدنا ذلك ضروريا.

1. مراجعة نقدية للدراسات والأبحاث السابقة حول الموضوع

إذا بحثنا عن الدراسات التي اهتمت بموضوع الرد الفينومينولوجي عند هوسرل في العالم العربي، سنجدها قليلة جدا، وهذا نظرا إلى صعوبة الفينومينولوجيا ككل، ثم صعوبة نظرية الرد تحديدا، فهي نظرية ميتافيزيقية دقيقة، مجردة وجافة جدا، لهذا فإنها لا تستهوي الباحثين كثيرا.

ومع هذا نجد أن أهم دراسة في الجزائر حسب اطلاعنا في الموضوع هي رسالة ماجستير حضّرتها الأستاذة نادية بونفقة في قسم الفلسفة في جامعة بوزريعة، ونشرتها ككتاب بعد ذلك (بونفقة نادية، فلسفة إدموند هسرل. نظرية الرد الفينومينولوجي) لكننا لو ذهبنا إلى العالم الغربي سنجد أن الدراسات في الموضوع كثيرة جدا ومتنوعة، وبكل اللغات، خاصة المقالات الأكاديمية. و سنذكر بعض هذه الدراسات: أولا كتاب (Jean-Luc Marion, Réduction et Donation, Paris, PUF) ثم كتاب (Jean- François Lavigne, 2015, Accéder au Transcendantal ? Réduction et Idéalisme dans les Ideen de Husserl, 2009, Paris, J. Vrin)، ومقال (Bednaski Jules, 1959, Deux Aspects de la réduction husserlienne , Dans Revue de Métaphysique et de Morale. 64e Année, N° 4 (Juillet-Septembre 1959), Presses Universitaires de France, Paris).

إضافة إلى مقال (Van Breda, 1951, Réduction et Authenticité d'après Husserl, Dans Revue de Métaphysique et de Morale. 56e Année, N° 1 (Javier- Mars 1951), Presses Universitaires de France, Paris. ونذكر في الأخير هذه المذكرة المهمة وهي: Enzo Savanier, 2017, Le Concept de Réduction dans la Phénoménologie de Husserl et celle de Heidegger, Mémoire présentée à l'Université du Québec).

2. حول مفهوم و خصائص الرد الهورسلي

1.2 مفهوم الرد

نظرية الرد نظرية جد صعبة معقدة، والحقيقة إن هذه الصعوبة وهذا التعقيد يبدآن منذ اللحظة الأولى لعرضها، أي عند محاولة تعريفها، إذ أن تقديم تعريف محدد وواضح للرد يبدو أمرا صعبا للغاية، ومع ذلك فإننا سنحاول تقديم تعريف مبسط وعام نتخذه كمنطلق لتحليلنا، ونأمل أن يتوضح مفهوم الرد أكثر فأكثر عند تناولنا لخصائصه في ثنايا هذا المقال.

"يملك لفظ الرد ذلك العيب الذي تعاني منه كل الألفاظ التي تدل في الوقت نفسه على عملية معينة وعلى النتيجة التي تنجم عنها. ومن حيث هو عملية، يعني الرد الإنقاص، من شيء ما، أي تبسيطه، ونزع جزء منه وإيصاله إلى أن يكون أوليا أكثر. وتتضمن هذه العملية إذن وعلى الدوام حالة أصلية، والتي ستنجز عليها عملية التغيير، والتي تكتسب النتيجة معناها انطلاقا منها، باعتبارها الرد المُنجز. ومن هنا فإن الرد يحدد موضعه بالقياس إلى حالة أصلية، وإلى موقف يُنعت بالموقف الطبيعي". (Vermersch, 2018, P1)

الرد كما يدل على ذلك معناه اللغوي البحت هو بالضرورة رد شيء إلى شيء آخر، لهذا فإن الرد يحصل بين طرفين، أو بالأحرى بين موقفين، هما "الموقف الطبيعي والموقف المتعالي" (Husserl, 1992, P26)، فهو انتقال من أحدهما إلى الآخر. الموقف الأول هو الحالة الأصلية التي ننطلق منها، ونحن نسعى إلى تجاوزها عن طريق الرد ذاته، وهي تكمن في "الموقف الطبيعي، الذي هو موضوع الرد بالذات" (بن أحمد، 2008، ص159)، ونحن ننجز عليه الرد، من أجل تغييره أو الانقلاب عليه. أما الموقف الثاني فهو الموقف الفلسفي أو

المتعالي، وهو الحالة التي نبتغي الوصول إليها، أي النتيجة التي نخلص إليها عند إنجاز الرد. "إن الدلالة الفينومنيولوجية العميقة للرد أو الإيبوخا ... [هي أنه] الإجراء المنهجي الذي يوكل إليه نقل الوعي من عالم الموقف الطبيعي إلى مدار التقويم المتعالي". (بن أحمد، ص153).

وسنحاول في هذا المقال التعريف بالرد عند هوسرل من خلال تقصي خصائصه التي ستوضح معناه أكثر، وسنعرض هذه الخصائص الآن ببعض الشرح والتفصيل.

2.2. خصائص الرد الهورسلي

1.2.2. الرد هو امتناع وتوقف:

أول خصائص الرد عند هوسرل هو أنه عبارة عن امتناع أو توقف، أي الامتناع عن إصدار الأحكام، لذلك فإنه اختار له اسم الإيبوخيه، اليوناني الأصل، وهذا ليبين من خلاله مقصوده بدقة، فهو مجرد تعليق لحكمنا على الأشياء، حيث نمتنع ونتوقف نهائيا عن الحكم. لذلك كان الرد مرادفا عنده أيضا للتعليق. "الإيبوخيه (épochè)، هذا اللفظ الذي يعني في اللاتينية «التوقف، الانقطاع والتعليق»، قصد به هوسرل الحركة الأصلية للرد، أي الحركة الأولى التي تندرج ضمن توسيع نتائج موقف لا للافتراض المسبق. يتعلق الأمر حرفيا بالتوقف، أي بقطع تيار الأفكار اليومية، التي تكون آراء بقدر ما تكون قناعات، والتساؤل حول زعمها بأنها حقيقية، وتبديد في كل واحدة منها أي حكم مسبق يجهل نفسه، والتقصي عنه" (Husserl, p23)، حيث سنعلق حكمنا على الأشياء قصد مساءلتها عن مدى صحتها.

في الحقيقة لم يطلق هوسرل على الرد اسمي الإيبوخيه والتعليق فقط، بل أطلق عليه كذلك تسميات أخرى كثيرة، من بينها الوضع بين قوسين، الوضع خارج دائرة العمل، الوضع خارج دائرة الفعل، الامتناع، الانقطاع، التوقف،الانسحاب، الإقصاء، البطلان النظري، اللامبالاة...

المهمة الأساسية للرد هي تعليق أحكامنا، ويجب أن يشمل هذا التعليق جميع أحكامنا دون استثناء، بداية بالأحكام الوجودية، ثم الأحكام العلمية، وأخيرا أحكام القيمة. من جهة أخرى يقتضي الرد ألا نصدر أحكاما على الأشياء لا إيجابا ولا سلبا، أي لا إثباتا ولا نفيا، "الإيبوخيه وبوصفه امتناعا هو لا ينفي، إنه يكتفي بتعليق الاعتقاد الوجودي La)

(croyance existentielle، إنه يُحيِّد موقفنا إزاء العالم. إنه لا يقرر شيئا، لا إيجابيا ولا سلبيا، عن الواقع الموضوع بن قوسين". (Bednaski, 1959, p337)

وهنا بالذات سيبرز الاختلاف الأساسي بين الرد الهوسرلي والشك الديكارتي، فمن المعروف أن هوسرل استلهم كثيرا من الشك الديكارتي أثناء صياغته للرد الفينومينولوجي، "سيستعيد هوسرل على طريقته الشك الكلي للفيلسوف الفرنسي، ويستخرج منه الإيبوخيه المتعالي والرد الفينومينولوجي". (Berger, 1941, p39)، الذي اعتبره إحياء للسير الديكارتي، وصرح بذلك في أكثر من مناسبة، وسماه الطريق أو المسلك الديكارتي، إذ قال:"كان لدينا شيء يحمل اسم الذاتية المتعالية بفضل **طريق الرد الديكارتي**". (Husserl, 1972, p194) ،والذي اعترف بأنه نوع من الرد أو من الإيبوخيه، لكنه رد ناقص فقط ومليء بالأخطاء، ويكمن دور هوسرل بالضبط في تصحيحه وتنقيته من كل الشوائب.

ومع ذلك لا يمكننا أبدا المطابقة بين الرد والشك المنهجي،وأهم اختلافبينهما هومسألةالنفي (négation)، التي نجدها في الثاني، بينما هي منعدمة تماما في الأول "الإبوخا خلافا للشك الديكارتي، لا تتضمن النفي الأنطولوجي". (بن أحمد، ص 223) يقوم الشك المنهجي لديكارت على نفي الأشياء، وذلك حينما اختار ديكارت أن يعتبر كل ما هو مشكوك فيه باطلا، وبما أن وجود الأشياء ليس يقينيا فقد وصل ديكارت إلى إنكار وجودها–وكذلك الأمر بالنسبة إلى معرفتنا بالأشياء- أما هوسرل فيرفض هذا النفي ويدعو إلى تعليق الموجودات والمعارف فقط، دون زيادة أو نقصان.

2.2.2. الرد كلي

من أهم مميزات الرد أيضا أنه كلي أو شامل (Une épochè universelle)، "نحتاج إذن إلى قلب كامل لهذا الموقف [الموقف الطبيعي]، أي إلى إيبوخيه كلي ذي طبيعة خاصة تماما".(Husserl, p169) إذ يحرص هوسرل على أن يشمل الوضع بين قوسين كل الموجودات وكل العلوم والمعارف دون استثناء، وهو يبذل لأجل ذلك جهدا جبارا. "هذا الرد الشامل... [يجب علينا أن] ننجزه بكل العناية الممكنة، أي بأن نحذر كثيرا من عدم ترك أي عنصر من العالم، مهما كان -سواء كان واقعة أو قيمة- يخرج من بين القوسين". (Berger, p45)ينفصل هوسرل في هذه المسألة أيضا عن ديكارت بالكلية، لأنه يعتبر أن الرد

كلي، بينما يرى أن الشك الديكارتي كان جزئيا فقط. صحيح أن ديكارت نفسه لم يحكم على الأمر كذلك، وأكد على كلية شكه المنهجي، لكن هوسرل سيبين العكس، وذلك بعد دراسته المعمقة للتأملات الميتافيزيقية، حيث أوضح أن ديكارت قد استثنى من شكه العديد من الأمور، من بينها نموذج العلم الرياضي أو الهندسي تحديدا، والذي اتخذه كمثال أعلى للعلم، وإيمانه بالصلاحية المطلقة للمنهج الرياضي، أي المنهج الاستنباطي، وعدم شكه في وجود الأنا، وعدم شكه في وجود الله، فهو لم يعرض لاختبار الشك لا الأنا ولا الله، ولهذا ظل شكه جزئيا، بالرغم من أنه كان يدعي العكس، بحيث نستطيع القول إن "جذرية الشك الديكارتي هي ظاهرية لا غير" (بن أحمد، ص223) في نظر هوسرل. ويمكننا أن نجد أسباب هذا الانزلاق في أمور كثيرة، منها انبهار ديكارت بالعلم الرياضي، وتأثره بآراء ميتافيزيقية ودينية ورثها من التقليد الفلسفي واللاهوتي المدرسي، واستعادها دون نقد أو تمحيص-سواء كان ذلك بوعي منه أو بلا وعي-

وحرصا منه على جعل الإيبوخيه كليا، سيسعى هوسرل جاهدا لئلا يخرج أي شيء من بين القوسين، فيُعلّق كل وجود وكل علم، وكل منهج، بما في ذلك العلوم الرياضية ومنهجها الاستنباطي، الذي يرى بأن استبعاده من الشك من قِبل ديكارت، قد أضر كثيرا بفلسفته، بل وبالفلسفة الحديثة عموما بعده. "إن ديكارت قد وضع لنفسه مسبقا مثالا علميا أعلى، هو مثال الهندسة، أو على الأصح مثال الفيزياء الرياضية. ولقد مارس هذا المثال ولعدة قرون تأثيرا سيئا. ونظرا لأن ديكارت قد تبناه من دون نقد سابق، فإن تأملاته تأثرت هي أيضا بهذا الأثر السيئ". (Husserl, 1953, p6)

يُعلّق هوسرل إذن جميع العلوم، بداية بالعلوم الطبيعية، ثم العلوم الصورية –أو الماهوية كما يسميها- أي المنطق والعلوم الرياضية بكل فروعها، وسيعلّق معها منهجها الخاص بالضرورة، أي المنهج الرياضي ذاته. حيث يؤكد على أنه ينبغي لنا "«أن نضعبين قوسين» المنطق الصوري، ومعه كل العلوم التابعة للرياضيات الصورية (الجبر، نظرية الأعداد، ونظرية الكثرة...الخ)".(Husserl, 1950, p194)

لم يكتف هوسرل بتعليق المعارف العلمية فحسب، بل حرص أيضا على تعليق المعارف الفلسفية، وقد اخترع لهذا الغرض نوعا خاصا من الرد سماه الإيبوخيه الفلسفي، الذي عمل فيه على تعليق كل التراث الفلسفي، لا المعاصر له فقط، بل التراث

الفلسفي منذ بداياته الأولى وحتى عصره هو."الإيبوخيه الفلسفي الذي نقترح إنجازه، والمعبر عنه بألفاظ صريحة، يجب أن يكمن فيما يلي: سنُعلّق حكمنا على كل فلسفة سابقة، ونواصل كل تحليلاتنا في الحدود المفروضة من قبل هذا التعليق للحكم. غير أنه لن يكون محكوما علينا ولأجل ذلك بأن نمتنع إطلاقا، عن الحديث عن كل فلسفة، حتى لو أردنا فعل ذلك، إذا كنا نقصد بالفلسفة واقعة تاريخية أو اتجاهات متبناة من قبل الفلاسفة في الواقع، والتي أعطت توجها حاسما للقناعات العلمية ولقناعات عامة الناس، لكنها سيئة في معظم الأحيان الأخرى".
(Husserl, 1950, pp61-62)

كما امتد التعليق الهوسرلي أيضا إلى المعارف العامية التابعة للحس المشترك، ذلك أنه "ومن خلال حركته الارتدادية، هو [الرد] الذي يُظهر الحياة الواعية، ويتجاوز الرموز، ويقود إلى التجربة الأصلية، وهو يشمل إذن التصورات الفلسفية والعلمية، وتصورات الحس المشترك أيضا". (Bednaski, 1957. p344)

وحتى يكون الرد كليا حقا، فلن يفوتهوسرل أيضا تعليق وجود الأنا الطبيعي (أي الأنا التجريبي والأنا النفساني معا)، "إنها لأهمية أساسية وحاسمة بالنسبة إلى توجه الفينومينولوجيا أن تتمكن من وضع الوعي النفساني خارج دائرة العمل. إن الأنا الذي يرد العالم، يجب أن يقدر وبالتزامن مع ذلك، على أن يرد أناه التجريبي". (Bednaski, 1957, p338) والنفساني معا، نظرا لارتباطهما بالعالم.

ولم يغفل هوسرل في الأخير عن تعليق وجود الله أيضا، حيث يقول: "وجود الموجود «الإلهي» الخارج عن العالم... هذا «المطلق»، هذا «المفارق» يدخل على نحو طبيعي في الرد الفينومينولوجي. ويجب أن يبقى مقصيا من حقل الدراسة الجديد الذي ينبغي علينا إنشاؤه، في حدود أنه يجب أن يكون حقل الوعي الخالص". (Husserl, p192)

ويظهر لنا بذلك أن هوسرل لن يُبقي في نهاية الرد إلا على **الأنا الخالص والمتعالي**، لأنه الموجود الوحيد الذي يستطيع الصمود أمام هذه الحركة الجارفة للتعليق الكلي، والسبب في ذلك أنه الموجود الوحيد الذي يكون مستقلا استقلالا كليا ومطلقا عن وجود العالم، لذلك فلن يتأثر بتعليقه بحال من الأحوال.

3.2.2 الرد حقيقي

علاوة على ما تقدم، يتميز الرد الهوسرلي بأنه حقيقي، بمعنى أن الفينومينولوجي يسلك هذا المنهج بالفعل والحقيقة، فالرد ليس تخيليا ولا افتراضيا، أي أن الفيلسوف لا يتخيل الرد بواسطة ملكة المخيلة، ولا يفترضه على سبيل الافتراض العقلي، بل "سيمارس الرد بالفعل، إلى أن يصل إلى الأسس النهائية إطلاقا للفلسفة". (Husserl, P176)

فالفيلسوف أثناء الرد لا يتخيل ولا يفترض ما الذي سيحصل في حالة ما إذا علّقنا العالم والعلوم، ليستخلص بعدها النتائج النظرية المترتبة عن ذلك، بل هو ينجز هذا التعليق بالحقيقة. "تعليق سلوكنا الذي يضع الأشياء، والذي يتم في الاعتقاد الوجودي ليس تخيليا، لا يتعلق الأمر بتخيله ولا بالتسليم به بصفته فرضية، الرد حقيقي". (Bednaski, p340.)

إضافة إلى ذلك يرى هوسرل أن الرد ليس مجرد إجراء منهجي يمارسه الفيلسوف كأداة للتفلسف، أي باعتباره تقنية عقلية لبناء الفلسفة، بل هو حقيقي بكل ما للكلمة من معنى. حيث يختلف منهج الرد فيهذا عن كل المناهج العلمية، والتي تكون إجرائية فحسب، فعالِم الفيزياء مثلا حين يسلك المنهج التجريبي في مخبره، يسلكه كمنهج إجرائي فقط، ومن ثم فهو يمارسه كتقنية علمية بكل برود وموضوعية، لأنه يمارسه من الخارج. بالعكس تماما من ذلك، يمارس الفينومينولوجي منهجه بالحقيقة، وبتعبير دقيق وواضح، هو يعيش منهجه في تجربة واقعية وحقيقية، أي يمارس منهجه من الداخل وليس من الخارج، كما يفعل العلماء ذلك، فهو منخرط في منهجه ويعيش كل لحظة من لحظاته بصدق وبتورط كامل.

وهذا الأمر لا يخص المنهج الفلسفي فقط أي الرد بل إن هوسرل يرى أن الفلسفة بأسرها لا يمكن أن تكون إلا تجربة معرفية وأنطولوجية يعيشها الفيلسوف حقا في أعماقه، بل يصل فيها إلى درجة المعاناة–الفكرية طبعا- لأن الفلسفة ليست رفاهية فكرية ولا تسلية عقلية، بل هي هم يحمله الفيلسوف بداخله، ويعاني منه ولأجله طوال حياته، مثلما حصل ذلك لهوسرل نفسه، لذلك يخلص هوسرل في النهاية إلى المطابقة بين الفينومنولوجيا ككل ومنهج الرد. "مهمة الرد لا تنحصر في ... [كونه] مجرد أداة أو تقنية تفكير... فالرد بما هو منهج بالمعنى الحقيقي والعميق –وليس بالمعنى الإجرائي- يصبح ههنا ماهية الفينومينولوجيا عينها". (بن أحمد، ص155).

4.2.2. الرد شخصي

في الحقيقة إن هذه الخاصية هي النتيجة الضرورية للخاصية السابقة، ذلك أنه "مادام الإيبوخيه حقيقيا" (Bednaski, p340)، أي مادام الفيلسوف مطالبا بإنجازه بالحقيقة، فينبغي له إذن أن ينجزه بنفسه، "الرد الفينومينولوجي هو إجراء شخصي" (Berger, p67)،حيث لا ينوب أحد عن الفيلسوف في هذه العملية، والتي تكون ضرورية وحاسمة بالنسبة إلى كل فيلسوف يريد أن يكون فيلسوفا حقيقيا. فيكون المنطلق الأول للرد هو جهد شخصي صادق نابع من أعماق الفيلسوف نفسه، لممارسته قصد الوصول إلى الحقيقة من خلاله.

ولهذا السبب أيضا دعا هوسرل قراءه لكي يشاركوه في تأملاته الفلسفية، "هوسرل يدعونا إلى مشاركته في تأملاته وفي استنتاجاته، حتى نشعر أنها تأملاتنا واستنتاجاتنا نحن، فنؤمن بها إيمانا قاطعا". (بونفقة، ص63) أي أن الرد الذي قام به هوسرل بنفسه، لا يُغني باقي الفلاسفة عن ممارسته، لأنه مادامت الفلسفة قضية شخصية، فكل فيلسوف ملزم بإجراء الرد بنفسه، حتى يكون هذا الرد ردا حقيقيا، وحتى يكون هو أيضا فيلسوفا حقيقيا.ومشاركة كل فيلسوف في الرد أمر جد مهم بالنسبة إلى هوسرل، لأنها ستمكنه من فهم الرد حقيقة، كما ستمكنه من فهم النتائج التي يوصل إليها، فيختبر مدى صدقها بنفسه، لأنه ساهم في اكتشافها بنفسه. "الرد الفينومينولوجي هو الإجراء الذي يجب على كل واحد منا أن ينجزه فعليا، لكي يفهم طبيعته وقيمته" (Berger, p66)،ولكي يسلم بعد ذلك بنتائجه بقناعة كاملة.

5.2.2. الرد إرادي محض

المقصود بذلك أن عملية الرد تكون ناتجة عن فعل الإرادة، أي أن الفيلسوف سينجز الرد باختيار منه، ويعني ذلك أن الرد ينبع من قرار حر حرية كاملة، ولن يكون مجبرا عليه بحال من الأحوال. لهذا لم يكن هوسرل مدفوعا بأية أسباب خارجية لإنجاز الرد، وهذا ما يفصله عن قدماء الشكاك، الذين يستعير منهم تسمية الإيبوخيه ومعها خطوة تعليق الحكم، لكنه يرفض رفضا قاطعا مذهبهم الشكي.

عاش الشكاك اليونان كالبيرونيين مثلا في ظروف تاريخية جد مزرية، والتي تميزت بالانحطاط في كل نواحي الحياة، السياسية منها والأخلاقية وحتى الفكرية، حيث عرف

عصرهم انقسام الفلاسفة وصراعاتهم المذهبية الحادة، التي ضاعت الحقيقة وسطها، مثلما ضاعت المثل الأخلاقية وسط الانحلال الأخلاقي لذلك العصر. فكانت هذه الظروف هي الأسباب القوية التي دفعتهم للشك، حيث مثلت شكيتهم الهدامة استسلاما وانهزاما لا للعقل فقط، وإنما للإنسان ككل أمام الواقع المرير. وقد لخصوا كل ذلك بعبارتهم الشهيرة "لا أدري"، التي اشتق منها اسم اللاأدرية، والذي أطلق على مذهبهم السلبي. يقول يوسف كرم: "لم يكن الشاك في هذا الدور نافيا متهكما كالسفسطائي، ولكنه رجل مغلوب على أمره فقد الإيمان بالحق والخير في بيئة تبلبلت فيها الأفكار وفسدت الأخلاق إلى حد بعيد، فانعزل في نفسه لا يوجب ولا ينفي، وإنما يقول: لا أدري". (كرم، 1936 ، ص311)

وتظهر الدوافع الخارجية للشك اليوناني في الحجج التي استخدمها قدماء الشكاك لتبرير نفيهم للحقيقة، فمن أشهر حججهم خداع الحواس، حيث إن تأملهم العميق في المعرفة الحسية، بكل ما تحمله من إشكالات وتناقضات، أوصلهم إلى الشك في الحواس، ثم شكوا في العقل بعد ذلك، وكانت أقوى حجة استخدموها في هذا الصدد هي اختلاف أفكار الفلاسفة وتضارب آرائهم، والتي تبين بوضوح بأن لا واحد منهم يملك الحقيقة، وقد غالوا كثيرا عندما استنتجوا من ذلك انعدام الحقيقة في حد ذاتها.

غير أن هوسرل وخلافا للشكاك اليونان، لم يخضع لتأثير العوامل الخارجية، التي يمكنها أن تلعب دور مبررات الرد، بل إنه مارس الرد بحرية تامة، حيث يقول صراحة: "بالعكس لا شيء يدفعني لإنجاز الإيبوخيه، ومادُمت غير مدفوع وعلى نحو جذري، فإن الإيبوخيه هو تلك العملية التي أباشرها بكل حرية، دون إرغام آخر سوى ذلك الذي أفرضه أنا على نفسي". (Husserl, p24) حيث يكون الرد محكوما بدوافع داخلية وليس خارجية أبدا، وهي ما يسميه هوسرل التحديد الذاتي، والتي تتمثل فيما يفرضه الفيلسوف على نفسه بحرية كاملة. "التأمل الكلي يتحد بالإيبوخيه الكلي، والذي يصل هنا إلى تحديد الإرادة مع تمثل هذا التحديد الكلي للإرادة عن طريقه". (Husserl, p215)

6.2.2 الرد دائم

يتميز رد هوسرل بأنه دائم، والمقصود بذلك أنه بمجرد أن يبدأ الفينومينولوجي حركة تعليقه للعالم وللعلوم، فيجب عليه أن يستمر فيها دائما، أي طوال حياته، فهو ليس

إجراءً عابرا أو مؤقتا أو معزولا. يقول في ذلك: "من الجدير بالملاحظة أيضا، أن الإيبوخيه الفعلي أو الإيبوخيه المتعالي يُتصور بطبيعة الحال على أنه موقف مألوف، والذي نقرره مرة واحدة للأبد، وهو ليس أبدا فعلا عابرا، والذي يُبقيه تكراره نفسه في جوازه وعزلته". (Husserl, p171) والسبب في ذلك أن الرد ليس منهجا إجرائيا، كما أسلفنا الذكر، ومن ثم فهو ليس وسيلة لغاية أخرى خارجة عنه، بل إن الرد هو غاية في ذاته. وهنا ترتسم فوراق جديدة بين الرد والشك الديكارتي، ذلك أن هذا الأخير كان إجرائيا، أي وسيلة للوصول إلى اليقين، كما صرح صاحبه بذلك مرارا وتكرارا.

ولما كان اليقين هو غاية الشك عند ديكارت، فقد كان من الضروري له أن يتوقف عن الشك بمجرد أن يبلغ هذا اليقين، فكان الشك مؤقتا بالضرورة. أما الرد فسيكون بخلافه دائما ومستمرا، ويعني ذلك أن كل النتائج التي توصل إليها هوسرل كانت من داخل الرد، وليس خارجه أبدا، لأنه قرر أن يدخل الرد لكي لا يخرج منه مطلقا، أي لكي يبقى فيه دائما وأبدا. لهذا يمكننا أن نقول إن شك ديكارت هو مجرد محطة أو مرحلة في فلسفته، وهي تمثل المرحلة السلبية أو مرحلة التهديم، لتليها مرحلة البناء، التي تكون بعد الشك وخارجه، أي بعد تجاوزه تماما من خلال الوصول إلى اليقين المطلق، الذي تحققه معرفة الذات بالكوجيتو ومعرفة الله بأدلة وجوده المشهورة. بينما يستحيل أن يكون الرد عند هوسرل مرحلة من فلسفته، بل هو فلسفته بأكملها، لأنه ما إن يظهر للوجود حتى يستقر فيه نهائيا.

لم يكن هوسرل محتاجا لأن يغادر الإيبوخيه لكي يمر إلى مرحلة التقويم أو التأسيس (La constitution)، بل إن التقويم هو المرحلة التي تلي الرد مباشرة، وهي تحصل بداخله وفي أعماقه، لأنها متضايفة إليه "سيُنجز الرد بمعنى ثان، يتطلب الرد في حد ذاته، عملية أخرى مهمة، والتي تكون متضايفة إليه، والتي تمنحه كاملمعناه، ويتعلق الأمر بالتقويم". (Husserl, p26) وأكثر من ذلك يعد التقويم وجها آخر للرد، والذي يعرف بالرد الإيجابي، في مقابل التعليق الذي يعرف بالرد السلبي. "الرد الفينومينولوجي بطابعيه السلبي والإيجابي (وهما التعليق والتأسيس)".(بونفقة، ص 22).

7.2.2. الرد تدريجي

حتى وإن كان الرد دائما، إلا أنه لا يحدث دفعة واحدة، بل يجب أن يكون تدريجيا، ويترتب عن ذلك أن يتم هذا الرد "عبر أشكال ومراحل الرد المعروفة" (بن أحمد، ص161) عند الدارسين لهوسرل. ومن ثم فإنه سينقسم بالضرورة إلى ردود كثيرة ومتباينة حقا فيما بينها، لكن هوسرل يجمعها كلها في اسم واحد هو الرد الفينومينولوجي. "إذا وصفنا «الوعي الخالص»، الذي سيكون موضوع حديثنا كثيرا، بأنه وعي متعال، فيجب علينا أيضا أن نحدد العملية التي ستقدم لنا مفتاحه، وهي الإيبوخيه المتعالي، وتنقسم هذه العملية من جهة المنهج إلى مراحل متباينة من الوضع خارج «دائرة الفعل» أو «الوضع بين قوسين»، ومن ثم فإن منهجنا سيكتسي طابع الرد التدريجي، ولأجل ذلك فإننا سنتكلم في بعض الأحيان، بل والأفضل لنا أن نفعل ذلك، عن الردود الفينومينولوجية (حتى وإن كنا ولكي نشير إلى وحدة مجموع هذه المراحل، سنستخدم أيضا اللفظ الموحد الرد الفينومينولوجي". (Husserl, pp108- 109)

ويمكننا أن نعدد هذه المراحل بالرجوع إلى الأشكال الأساسية الثلاثة للرد الواردة في كتاب الأفكار1، والتي سنتخذها فقط كنموذج نتطرق من خلاله لأنواع الرد، لكي نشرح بواسطته فكرتنا، وذلك لأن سياق هذا المقال لا يسمح أبدا بالتوسع في كل الردود، وهي الرد الماهوي (Réduction eidétique)، الرد المتعالي (Réduction transcendantale) والرد الفلسفي (Réduction philosophique). "بعد الرد الماهوي الذي يفصل منطقة الماهيات عن منطقة الوقائع، وبعد الرد الفلسفي، الذي يجعل الإيبوخيه يتوجه إلى النظريات والأنساق، فإن الرد الفينومينولوجي الذي يستبعد الوقائع والماهيات في الوقت نفسه، سيضع العالم بأسره بين قوسين، ويكتشف الطابع الضروري للأنا".(Berger, p55)

شرحنا سابقا الرد الفلسفي، وبقي لنا أن نشرح الآن الرد الماهوي والرد المتعالي. ونبدأ بالأول، حيث إننا في الرد الماهوي أو الصوري نحن نرد الوقائع إلى الماهية، أي الوقائع الجزئية بكل ما تنطوي عليه من جواز واحتمال ونسبية إلى الماهية الكلية والضرورية. "الرد (أو الاختزال الصوري. ويقوم على التمييز بين الواقعة وبين الماهية، وفيه نرد الوقائع الجزئية أو الفردية إلى الماهية الكلية، فمثلا نرد أنواع الأحمر المتجلية في مختلف الأشياء الحمراء إلى ماهية «الأحمر»، ونرد مختلف أفراد الإنسانية إلى «الإنسان»". (بدوي، 1975، ص135).

أما في الرد المتعالي فإننا سنرد الظواهر الطبيعية والنفسانية إلى الظواهر المتعالية أو الخالصة، "الرد (أو الاختزال) المتعالي... ويقوم على التمييز بين «الواقعي» وبين اللاواقعي... فيه نرد المعطيات في الشعور الساذج إلى ظواهر متعالية في الشعور المحض". (بدوي، ص135). كما سيتم في الرد المتعالي أيضا رد العالم إلى الأنا المتعالي، "الرد هو المنهج المُقوّم لماهية الفينومينولوجيا، إذ هو الذي في صيغته كرد ماهوي أو أيدوسي يمكن من تعليق العلاقة الطبيعية بالواقعة (Fait)، قصد إدراك الماهية (Eidos, essence) التي تدرسها الفينومينولوجيا الأيدوسية. وهو الذي كذلك في صيغته كرد متعال أو ترنسندنتالي يسمح وحده بتعليق أطروحة العالم الطبيعي للكشف عن الوعي المحض أو الكوجيطو بما هو موضوع بحث الفينومنيولوجيا المتعالية". (يوسف بن أحمد، ص153).

وعند رد العالم إلى الأنا المتعالي، سيتضح لنا أنه وبدل أن يكون العالم موجودا في ذاته ومستقلا تماما –كما يعتقد أنصار المذهب الواقعي ذلك بسذاجة- فإنه مجرد ظاهرة محايثة للوعي الخالص أو متضايفة إليه، وهي تستمد وجودها وقيمتها منه ومنه فقط، لأنه هو الذي يعطيها معناها. "من أجل اكتشاف التضايف الأساسي، ذلك الذي يربط مجموع العالم بالذات المتعالية، والتي تحمل العالم بصفته وحدة المعنى".
(Berger, p38)

ويمكننا أن نستخلص في الأخير أن كل مرحلة من مراحل الرد، تمثل حلقة من الحلقات المتسلسلة والمترابطة، بحيث تكون مرحلة مؤقتة من المنهج الكلي، فتكون بمثابة مرحلة ممهدة للمرحلة التي تأتي بعدها، ولهذا السبب بالذات لن تكون مراحل الرد متعارضة فيما بينها، ولا مهدمة لبعضها بعض، بالعكس تماما إنها متكاملة فيمابينها على الوجه الأكمل. "يملك الرد الفينومينولوجي أشكالا ووظائف نظرية هي متعددة ومتباينة، دون أن تكون في أصلها ومقصدها متعارضة أو متناقضة." (بن أحمد، ص 152)

8.2.2. الرد متكرر

زيادة على الخصائص المذكورة آنفا، يكون الرد متكررا بالضرورة عند هوسرل، حيث يدعونا إلى تكراره مرات عديدة وبلا توقف، أي أنه لا يحصر تكراره في عدد معين من المرات، بل يمتد ذلك بلا حدود. والسبب في ذلك هو صعوبات إنجاز الرد، وهي صعوبات كثيرة وخطيرة، قد تصل خطورتها في بعض الأحيان إلى أنها تجعل الإنسان

عاجزا عن ممارسة الرد بالفعل والحقيقة. وسنذكر أهم صعوبة، وهي خطر الموقف الطبيعي الذي يبقى يتربص بنا في كل لحظة من لحظات الرد، ذلك أننا حتى عند إنجازنا للرد، فإن ذلك لا يعني أننا قد تخلصنا كلية من الموقف الطبيعي، بل إنه يظل موجودا في وعينا بطريقة خفية، ويؤثر علينا من دون أن ننتبه إلى ذلك، ويعمل على إرجاعنا إلى اعتقاداتنا القديمة، وهذا ما يسميه هوسرل إغراءات الموقف الطبيعي، "ولأجل ذلك أيضا فإننا نُعرِّض أنفسنا للخطر، مثلما دلت على ذلك الطريقة التي تلقى بها الفلاسفة كتابي «**الأفكار**»، وهو خطر السقوط مرة ثانية وبسهولة كبيرة وبالتقريب منذ البدايات الأولى، في الموقف الساذج الطبيعي، وهذا من خلال إغراء مباشر وقوي". (Husserl, p176)

وأهم نتيجة لإغراءات الموقف الطبيعي هي أنها تجعلني غير قادر على إنجاز الرد الكامل، ومن ثم فإنني سأكون غير متيقن من أنني قد غادرت الموقف الطبيعي نهائيا، وانتقلت إلى الموقف المتعالي بالفعل والحقيقة، لأنني معرض للسقوط في الموقف الطبيعي في كل لحظة وبسهولة كبيرة وبلا وعي مني. تقول درباز: "أنا لست متأكدا أبدا، ماعدا في لحظات قليلة مميزة، بأنني أوجد داخل الموقف المتعالي التأملي، لأنني غالبا ما أسقط وبالرغم عني في الموقف الطبيعي". (Husserl, p27) ويكون الفينومينولوجي بذلك مهددا على الدوام بإنجاز رد ناقص فقط، حيث تتسلل إليه بعض أفكار الموقف الطبيعي ومن دون أن يعي ذلك أصلا. وليس هناك حل آخر للتصدي لهذا الخطر إلا تكرار الرد باستمرار، وهذا قصد الوصول إلى الرد الكامل، أي الرد الذي يُبقي كل آراء وأفكار الموقف الطبيعي بين قوسين، وهو ينجز هذه المهمة بحذر شديد وبيقظة كاملة، نظرا لأنها مهمة شاقة جدا وعسيرة للغاية على العقل الإنساني.

3. اختلاف الرد عن العمليات العقلية المعروفة

لا يمكن أن يكتمل تعريفنا للرد من دون أن نميزه عن كل العمليات القريبة منه، ذلك أنه لما كان الرد عملية عقلية بحتة ينجزها الفيلسوف لكي تهيئه لمزاولة التأمل الفلسفي الحقيقي، فإنه لا يجب الخلط بينها وبين عمليات عقلية أخرى، والتي قد تبدو مشابهة لها في الظاهر، ومن بينها الاستدلال، الجدل، التحليل، الاستنباط والتجريد، "والرد الفينومينولوجي ليس تجريدا، ولا تحليلا". (Berger, p79) ولا أية واحدة من العمليات المذكورة قبل قليل، لأنه متميز عنها تمام التميز. وبغية الاختصار سنركز على عمليتين

مهمتين، تبدوان في الظاهر أنهما أقرب العمليات العقلية إلى الرد، وأكثرهما عرضة للالتباس به، وهما التجريد والاستنباط.

عندما يقوم الفيلسوف بالتجريد العقلي، فإنه يفصل بين جانبين في الشيء الواحد، لكن هذا الفصل عقلي فقط، أما في الواقع فإن هذين الجانبين يكونان متحدين بقوة فيما بينهما، بحيث يستحيل انفصالهما عن بعضهما بعض، لأنه لو حصل ذلك لتحطم وجود الشيء الذي يؤلفانه معا، فهما جزءان من شيء واحد ووحيد. ونعطي مثالا عن ذلك، لو جردنا صورة الإنسانية من أي إنسان، فإننا سنفصل عقليا بين الجانب المحسوس في الإنسان، مثل البدن، اللون، الطول، الشعر، اللحم، العينين... والجانب المعقول، أي الصورة المعقولة الخالصة، والتي تُكوّن في النهاية ماهية الإنسان. لكن الصورة المعقولة للإنسانية تكون مغروسة في الجانب الحسي من كل إنسان، ويستحيل انفصالها عنه في الواقع، من دون أن يؤدي ذلك إلى تهديم وجود الإنسان ككل.

صحيح أننا خلال الرد سنحرر الوعي من العالم، أي أننا سنفصل دائرة الوعي المتعالية عن دائرة العالم الطبيعية ونعزلها عنها نهائيا، "الرد يفصل كلية بين العالم بوصفه مجموع الأشياء من جهة، وبين الوعي، أو الذات التي تمارس الرد من جهة أخرى" (Lyotard, 1954, p22)،لكن ذلك لا يشبه التجريد العقلي مطلقا، وهذا لأن الوعي الذييعمل الرد على تحريره من العالم هو وعي غير عالمي وغير طبيعي أصلا، لأنه ينتمي إلى دائرة وجود خاصة هي دائرة المتعالي، فنحن لا نجرد أثناء الرد جانبا من جانب آخر، واللذين ينتميان لنظام واحد، ولشيء واحد كما هو حال الماهية والشيء، لكننا أمام دائرتي وجود مختلفتين تماما عن بعضهما، حيث يصر هوسرل على أن الوعي –الوعي الخالص والمتعالي طبعا- ليس جزءا واقعيا من هذا العالم، ولا هو مرتبط به ولا تابع له في وجوده، بالعكس الوعي الخالص هو غير عالمي أصلا، ومن ثم فإنه مستقل تماما عن العالم. "إذن فالرد يقود في الواقع إلى الشعور بالذات من جهة، وإلى العالم- الظاهرة من جهة أخرى، باعتباره الموضوع الذي يقصده هذا الشعور المتعالي. وهذا يعني شيئا مهما للغاية، وهو أن الكوجيتو عند هوسرل، هو إدراك الذاتخارج العالم الطبيعي – أي في استقلال تام عنه– في بداهة يقينية تماما، باعتبارها ذاتية متعالية، مصدرا لجميع الدلالات وباعتبارها معنى العالم". (بونفقة، ص98)

وتعالي الوعي عن دائرة الطبيعة هو أيضا سبب تميز الرد عن التجريد، "الإيبوخيه ليس تجريدا: عندما يضع الإيبوخيه الواقع العالمي بين قوسين، فإنه يترك **الوعي** سليما، باعتباره المتبقي الفينومينولوجي. ويجب أن تُميَّز عملية الفصل هاته وبعناية عن التجريد المتصور كتحرير لجانب من حضن الكل. الرد ليس فصلا بهذا المعنى، بحيث يكون الوعي جزءا من كلية الوجود الواقعي، الوعي مستقل في وجوده عن الواقع العالمي، إنه أولي بوصفه الموجود الدال، إنه ما تصل الدلالات من خلاله إلى العالم، إنه مختلف عن الشيء". (Bednaski, pp340-341) أما الماهية المجردة من الواقع، فإنها تفتقر حتما إلى الاستقلال الذي يتمتع به الوعي. "بالعكس ليس المجرد سوى ماهية محرومة من الاستقلال"(Berger, p51). أي أنها لا تستقل أبدا في وجودها عن الشيء الذي جردناها منه من جهة، كما لا تستقل عن العالم الذي توجد فيه، وهذا بعكس الوعي تماما.

من جهة أخرى يتميز الرد كلية عن كل العمليات الرياضية، لاسيما عن الاستنباط بوجه خاص، حيث يقوم الاستنباط باستخلاص النتيجة من المقدمات، ومن ثم فهو يستخرج قضايا جديدة كانت مجهولة عندنا من قضايا معروفة مسبقا، ويمكننا أن نقول إن الاستنباط يخلق موضوعا جديدا، وهذا ما جعل ديكارت يصفه بأنه منهج الإبداع، لأنه خلاّق حقا، فهو يضيف دائما معارف جديدة إلى معارفنا القديمة. لكن هذه الميزة بالذات، والتي جعلت ديكارت يُعجب بالمنهج الاستنباطي هي التي تفصله عن الرد. فالرد لا يستنبط النتائج من المقدمات، لأنه لم يُبق لنفسه أية معارف أو قضايا يمكنه أن يستند عليها، ويتخذها كمقدمات للاستدلال أو الاستنباط، فهو قد علّق صلاحية كل القضايا دون استثناء"الرد الفينومينولوجي ليس استدلالا عقليا، أي إجراءً خاصا بالفكر الذي يثبت النتيجة، وبطريقة ضرورية، انطلاقا من بعض المعطيات، سواء أدركناها في المقدمات عن طريق التحليل، أو بنيناها عن طريق حقائق معروفة سلفا، هو ليس ابتكارا، بل هو اكتشاف ". (Berger, p66)

في الحقيقة إن الوعي المتعالي الذي حررناه بواسطة الرد، كان موجودا منذ البداية في الموقف الطبيعي، لكنه كان محجوبا عنا، نتيجة انغماسنا شبه الكامل في هذا العالم، "أنا الذي أبقى في الموقف الطبيعي، إنني أيضا وفي كل لحظة أنا متعالي، لكنني لا أنتبه إلى ذلك إلا عند القيام بالرد الفينومينولوجي". (André, p278)

مكننا الرد إذن من الانتباه فقط إلى ما كان موجودا سلفا، أي انتباه الوعي المتعالي إلى ذاته، بالارتداد عليها، فهو اكتشاف فقط لما كان موجودا سلفا، وليس أبدا اختراعا لشيء جديد تماما، كما هو الحال في الاستنباط الرياضي.

4. عرض ومناقشة النتائج الرئيسية

وصلنا الآن إلى النتائج الرئيسية للبحث، والتي نختصرها بقولنا إن الرد الفينومينولوجي منهج فلسفي جد خاص، يتميز بمجموعة من الخصائص التي تجعله منهجا فريدا من نوعه في تاريخ الفلسفة، وهي أن الرد امتناععن الحكم أو تعليق له، وهو كلي، حقيقي، شخصي، إرادي، دائم، تدريجي، متكرر، وهو عملية عقلية جد خاصة، تتميز عن جميع العمليات العقلية التي قال بها الفلاسفة قبل هوسرل. علاوة على ذلك فإن علاقة منهج الرد بالفينومينولوجيا هي علاقة وثيقة جدا، لأنه يستحيل أن تتأسس الفينومينولوجيا من دون الرد، إلى درجة أنه في كثير من أحيان تتطابق الفينومينولوجا نفسها مع منهجها.

من جهة أخرى بنى هوسرل منهج الرد من أجل أن يخدم غاياته الفلسفية، ويمكنه بذلك من تحقيق مشروعه الفلسفي، وهو بناء الفلسفة كعلم صارم ودقيق، والحقيقة إنه المنهج الوحيد الذي يفعل ذلك في نظره. لهذا فهو المنهج الذي يُظهر عبقرية وأصالة هوسرل، لأنه هو الذي اخترع هذا المنهج بنفسه، كما عمل على تطويره لسنوات طويلة جدا، وذلك من خلال مراجعته وتصحيحه له مرارا وتكرارا، لأنه كان مقتنعا أن هذا المنهج مازال في بدايته، ومن ثم فهو ناقص، ويحتاج إلى إنضاجه أكثر فأكثر، غير أن هوسرل مات من دون أن يصل إلى صياغة نظرية كاملة وناضجة عن الرد، بحيث ترضيه وتقنعه بالكلية.

بالرغم من أن هوسرل لم يكن راضيا أبدا عن منهج الرد، إلا أنه كان في الحقيقة منهجا جديدا في تاريخ الفلسفة، وأيضا منهجا أصيلا وعميقا جدا. وستظهر قيمة الرد الفينومينولوجي في أن الكثير من الفلاسفة بعد وفاة هوسرل قد تأثروا به واستعاروه منه، وعلى رأس هؤلاء نجد أتباعه من الفينومينولوجيين أمثال أوجن فنك (Eugen Fink) وستاين (Edith Stein) وماكس شيلر (Max Scheler) وليفيناس (Emmanuel

(Lévinas وغيرهم، لكنهم عدلوا فيه وطوروه كثيرا، كما أنهم طبقوه في مجالات جديدة غير تلك التي طبقها فيها هوسرل.

بعد أن حللنا باختصار خصائص الرد الفينومينولوجي عند هوسرل، ها نحن نصل الآن إلى خاتمة بحثنا، والتي سنقدم فيها خلاصة بسيطة عما ورد في هذا البحث، لكي ننتقل بعد ذلك إلى الانتقادات الموجهة لنظرية الرد. سنركز في خاتمة بحثنا على توضيح الغاية التي لأجلها حدد هوسرل للرد هذه الخصائص بالذات دون سواها، ويمكننا أن نجد هذه الغاية في غاية الرد نفسه، وهو ما سنوضحه بعد قليل.

صحيح أن الرد هو منهج التفلسف في الفينومينولوجيا، أو بالأحرى هو المنهج الوحيد للتفلسف الحقيقي في نظر هوسرل، إلا أنه يمثل إلى جانب ذلك أيضا موقفا فكريا جد خاص، "لكن الفينومينولوجيا تعني في الوقت نفسه، وقبل كل شيء منهجا وموقفا للفكر، أي موقفا للفكر الفلسفي بوجه خاص، ومنهجا فلسفيا بوجه خاص." (Husserl, 1970, p45) ذلك أن الغاية القصوى التي يسعى إليها الرد، هي أن يقودنا إلى هذا الموقف الفكري بالذات، وهو عبارة عن موقف فلسفي جديد تماما، أهم ما يتميز به هو رغبته في الحياد الفكري، وإلى أقصى حد ممكن، وهذا بالضبط هو الموقف المتعالي الذي قلنا في بداية المقال إنه الموقف الجديد الذي ينقلنا إليه الرد، بعد تجاوزه للموقف الطبيعي الساذج. وبما أننا نصل إلى هذا الموقف الفلسفي المميز في أحضان الرد –لأننا لن نغادر الرد أبدا كما أسلفنا الذكر- فإنه سيتطابق معه في النهاية، أي أن الرد هو منهج وموقف فلسفي في آن واحد، وبتعبير آخر هو وسيلة وغاية معا. "حسب العبارة البليغة لألكسندر دي فالانس (A. de Waelhens)، أن الرد هو «في الوقت نفسه يؤسس الفينومينولوجيا ويمدها بالحركة ويكون غاية بحثها». التأسيس، الحركة، الغاية، هذه المهمة الثلاثية من شأنها أن تنأى قطعا بدلالة الرد عن كل مماثلة أو مقارنة ممكنة مع أي ضرب من ضروب المنهج المألوفة بما هو تقنية تفكير أو جملة من الإجراءات قصد بلوغ المعرفة الفلسفية". (بن أحمد، ص 153-154)

ويتضح لنا في النهاية أن الغرض الحقيقي للرد ليس هو نفي العالم ولا إنكار وجوده، ولا أيضا إنكار حقائق العلوم، بل هو وعلى وجه الدقة تحييد (Neutralisation)العالم والعلم معا. أي أن الفينومينولوجي لا يمنح أثناء الرد ثقته للاعتقاد الوجودي ولسائر

الحقائق العلمية، فهو يحرص على ألا يصدق بأية حقيقة إلا إذا برهن عليها برهنة قاطعة، وأن يتجاوز جميع البداهات الساذجة القائمة على الثقة العمياء في المعرفة. "أما الإيبوخيه فهو ليس نفيا للعالم، وإنما تحييد لصلاحيته فقط. وستكون قيمة أو صلاحيةالعالم في نظري محيدة عن طريق الإيبوخيه، ويعني ذلك أنني لم أعد أعتقد بتلقائية في وجود العالم، إنني أتساءل في الحاضر عن معنى وجوده. أنا لا أعتقد أبدا، لكنني أعرف، هذه هي أهمية تحييد القيمة، وسيستمر العالم بطبيعة الحال في الوجود، وإن كنت لا أطلق عليه أي حكم".(Husserl, p24)، فانتقل هوسرل بذلك من مشكلة الوجود الواقعي للعالم التي طرحتها الفلسفة الحديثة، إلى مشكلة معنى العالم.

يشبّه هوسرل الأنا الفلسفي الذي نكتشف وجوده في نهاية الرد، بالمشاهد اللامبالي، فهو يشاهد أطروحة الموقف الطبيعي من الخارج، دون أن يشارك فيها، بل ودون أن يبالي بها أصلا، لأنه علّقها، وأصبح أنا محايدا تماما. "يستلزم الرد وفي حركته السلبية تأملا يُعلّق موافقته على الأطروحة الطبيعية للعالم، ومن ثم فهو يفترض تدخل الأنا المشاهد المحض، الذي يمارس هذا التأمل دون أن يساهم في الاعتقاد الوجودي". (Bednaski, p346)

من جهة ثانية، سيترتب عن الحياد الفكري الناتج عن الرد، عدم انحياز الفينومينولوجي لأية فلسفة، وعدم تبنيه لأي مذهب فلسفي، وهذا ما سيحرره من التبعية العمياء للفلاسفة، ويجنبه أيضا الدخول في صراعات مذهبية عقيمة، تمزق صرح الفلسفة وتضعفها كثيرا، وتخفي عنها الحقيقة، بدل أن تساعدها على الوصول إليها –وهذا التحرير هو المهمة الأساسية للرد الفلسفي- وقد اشتهر هوسرل بمدى كرهه لروح المذهبية والتعصب في مجال الفلسفة. فالحياد الفكري الذي يدعو إليه سيولد فلسفة جديدة متحررة من كل القيود التي عرقلت عقول الفلاسفة قديما، وأهم هذه القيود هي التبعية والتعصب والأحكام المسبقة، ثم سيدفعها صوب الحقيقة مباشرة، أي الحقيقة المجردة، دون أي اعتبار لا لمذهب ولا لمعلم ولا لموروث. وهذه الفلسفة الجديدة هي بطبيعة الحال الفينومينولوجيا، التي تنشد أن تسير في الاتجاه الفلسفي الصحيح، الذي حادت عنه أغلبية الفلسفات السابقة عليها.

وصفوة القول، إن هوسرل قد سلك منهج الرد، لكي يرتقي من خلاله إلى موقف فكري جديد تماما، وهو موقف فكري حيادي على الإطلاق، والذي سيمكنه من تأسيس الفلسفة كما يحلم بها، أي الفلسفة كعلم صارم. وإذا فهمنا ذلك جيدا، فلن نجد أية صعوبة في فهم خصائص الرد، إذ سيتضح لنا أن هوسرل كان مضطرا لأن يضع للرد هذه الخصائص تحديدا، وهي أن يكون الرد امتناعا فقط وليس نفيا، وأن يكون كليا، حقيقيا، شخصيا، إراديا، دائما، وتدريجيا، متكررا وعملية عقلية جد خاصة، لأن هذه الخصائص بالذات هي وحدها الجديرة بأن تجعل الرد منهجا فلسفيا صارما، وتعطيه بذلك القدرة على بناء الفلسفة كعلم صارم.

خاتمة

إن فينومينولوجيا هوسرل كانت من العظمة والأصالة بحيث امتد تأثيرها إلى أغلب التيارات الفلسفية المعاصرة، لا سيما الوجودية، لكن ذلك لم يمنع الفلاسفة من نقدها. معروف أن الوجودية هي امتداد لفينومينولوجيا هوسرل، وأكثر شيء أخذته منها هو المنهج. غير أن الوجوديين طرحوا الرد الفينومينولوجي من منهج هوسرل – وكذلك فعل الكثير من الفلاسفة المعاصرين المتأثرين بمنهج هوسرل-، حيث اعتبروه خطوة مستحيلة على الفيلسوف، لأن إنجاز الرد الكلي هو أمر غير قابل للتحقيق أصلا. بالمقابل اعتبروا أن أهم خطوة في منهج هوسرل هي الوصف الفينومينولوجي، لذلك فإنهم تبنوه. لكنهم بدل أن يطبقوه على دراسة الوعي مثلما فعل هوسرل ذلك، فإنهم طبقوه في دراسة الوجود الإنساني. أكبر انتقاد وجهه الفلاسفة المعاصرون إلى الرد الفينومينولوجي هي أنه يستحيل على أي فيلسوف أن ينجز الرد الكلي، وهو الانتقاد الذي نجده عند هيدجر وميرلوبونتي وديريدا مثلا، "الرد لا ينجح أبدا، لأنه سيصطدم بمقاومة... ديريدا... يعتقد [أن] الرد الذي تريد الفينومينولوجيا أن تقودنا إليه ليس إلا خرافة أو وهما"(Igor Moulenda, 2012, pp 20-21)، وأقوى حجة يستند إليها هؤلاء الفلاسفة في اعتراضهم على الرد هي أن تعليق كل شيء في العالم والإبقاء على الأنا المتعالي فقط هو أمر مستحيل على الإنسان، لأن الإنسان جزء لا يتجزأ من هذا العالم، "أكبر درس للرد هو استحالة الرد الكامل. لأجل هذا يتساءل هوسرل من جديد باستمرار حول إمكانية الرد. لو كنا فكرا مطلقا، فإن الرد لن يكون إشكاليا... [لكننا] وبالعكس موجودون في العالم".

(Merleau- Ponty, 1945 Pp VIII- IX)

لهذا فإن فصل الأنا أو الوعي عن العالم هو أمر غير ممكن على الإطلاق. علاوة على ما سبق، يرى الفلاسفة المعترضون على الرد أنه حتى لو افترضنا جدلا أن التعليق الكلي للعالم بأسره هو أمر ممكن، فإن ذلك سيوصل الفينومينولوجيا إلى طريق مسدود حقا، لأننا متى علّقنا العالم تعليقا كليا، فإننا سنعلق أيضا وبالضرورة ذواتنا معه، ولن نجد عندئذ نقطة البدء الجذرية التي ننطلق منها في بناء الفلسفة من جديد، وهذا ما سيهدم الفينومينولوجيا من أصولها، وهذا ما دفعهم إلى التخلي نهائيا عن الرد، وتبني الوصف الفينومينولوجي.

المراجع

1. بدوي عبد الرحمن، 1975. مدخل جديد إلى الفلسفة، وكالة المطبوعات، الطبعة الأولى، الكويت.
2. بن أحمد يوسف، 2008. الظاهرة والمنهج، فينومينولوجيا هوسرل، مركز النشر الجامعي، تونس.
3. بونفقة نادية، 2005. فلسفة إدموند هسرل. نظرية الرد الفينومينولوجي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
4. كرم يوسف، 1936. تاريخ الفلسفة اليونانية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر.
5. Husserl Edmund, 1950. *Idées directrices pour une phénoménologie et une philosophie phénoménologique pure*, traduit de l'allemand par Paul Ricœur, édition Gallimard, Paris.
6. Husserl Edmund, 1992. *La crise de l'humanité européenne et la philosophie,* traduction de Nathalie Derpaz, Hatier, Paris.
7. Husserl Edmund, 1976. *La crise des sciences européennes et la phénoménologie transcendantale*, traduit de l'allemand et préface par gérard Granel, Gallimard, Paris.
8. Edmund Husserl, 1970. *l'idée de la phénoménologie*, traduit de l'allemand par Alexandre Lowit, presses universitaires de france, 1ere édition, Paris.
9. Husserl Edmond, 1953. *Méditations cartésienne*s, traduit de l'allemand par Melle Gabrielle Peiffer et M. Emmanuel Levinas, librairie Philosophique J. Vrin, Paris.
10. Husserl Edmund, 1972. *Philosophie première*, traduit de l'allemand par Arion L. Kelkel, tome2, presses universitaires de France, 1ere édition, Paris,.

11. Bednaski Jules, 1959. Deux aspects de la réduction husserlienne , *Revue de métaphysique et de morale*, 64e année, n° 4 (juillet-septembre 1959), presses universitaires de France, Paris.
12. Berger Gaston, 1941. *Le Cogito dans la philosophie de Husserl*, edition Montaigne, Paris.
13. Devaux André- A, 1954. La phénoménologie de Husserl est- elle un néo- cartésianisme ? *Les études philosophiques*, 9e Année, n° 3 (juillet/ septembre 1954), presses universitaires de France, Paris.
14. Lyotard Jean- François, 1954. *La phénoménologie*, presses universitaires de France, 7eme édition, Paris.
15. Merleau-Ponty Maurice, 1945. *La phénoménologie de la perception,* Paris, Gallimard.
16. Moulenda Joseph-Igor, 2012. *Derrida et la critique de la phénoménologie de Husserl, autour de la question de «métaphysique de la présence»*, thèse de doctorat, université de Caen.
17. Vermersch Pierre, 2018. psycho phénoménologie de la réduction, (article numérique téléchargé du site pvemers@es-conseil.fr, le 04/06/2018).